القسم الثاني

قراءات جزئية

لمستقبل التفاعلات الحضارية

أولاً

التقدم العلمى - التكنولوجي

يحدد صورة المستقبل

(١)

تشغلنا كما تشغل كل العقول المفكرة فى العالم صورة المستقبل: كيف سيكون؟! وعلى أى نحو ستكون حياة البشر خلال هذا القرن الجديد؟!

والحقيقة غير القابلة للشك هى أن التقدم التكنولوجى هو المؤثر الأكبر فى تحديد تلك الصورة للمستقبل القريب أو البعيد للبشر، كما كان هذا التقدم هو صاحب التأثير الأعظم على البشر طوال القرون الثلاثة الماضية .

وإذا كان ذلك كذلك فإن على مفكرى العصر وفلاسفته التفكير فى المستقبل من خلال النظر فيما سيحدثه هذا التقدم العلمى - التكنولوجى من تأثير فى حياة البشر . ولا شك أن العلماء هم الأقدر على تصور صورة المستقبل فى ظل هذا النوع من التقدم ؛ «فالتنبؤات حول المستقبل التى يقوم بها علماء محترفون أقرب إلى أن تُبنى بشكل أكبر على وقائع المعرفة العلمية من تلك التى يقول بها نقاد اجتماعيون أو حتى علماء من الماضى أبدوا تنبؤاتهم قبل أن تصبح القوانين العلمية الرئيسية معروفة بالكامل» كما يقول ميتشيو كاكو صاحب كتاب «رؤى مستقبلية» وهو أحد أعظم أساتذة الفيزياء المعاصرين فى الولايات المتحدة الأمريكية

والحاصل على جائزة نوبل . وهو الكتاب الذى سنستند إليه فى التعريف بصورة المستقبل كما يراها علماء العصر الحالى الذين استكشف كاكو أراءهم وهم حوالى مائة وخمسين عالمًا فى مختلف التخصصات .

إن الصورة العامة لمستقبل التقدم العلمى تتحدد فى رأيه فى ضوء التقارب الشديد والاستفادة المتبادلة بين ثلاث ثورات علمية شهدتها نهاية القرن الماضى وبدايات هذا القرن الجديد ألا وهى : الثورة المعلوماتية والثورة البيوجزيئية وثورة الكم . إن التلاقح بين هذه الثورات العلمية الثلاث هو الملمح الرئيسى من ملامح كل ما سيحدث من تطور علمى وتكنولوجى مذهل سيشهده البشر خلال القرن الحادى والعشرين .

فبالنسبة لثورة الكم فقد تمكن علماء القرن العشرين من فهم طبيعة المادة الحقيقية أما فى القرن الحالى فإنهم يطمحون إلى التحكم فى المادة بل إلى تصميم أشكال جديدة من المادة حسب الحاجة (ص١٧ من الترجمة العربية التى نشرتها عالم المعرفة الكويتية ، يونيو ٢٠٠١م) أما فى مجال ثورة المعلومات التى تقوم على الثورة فى مجال الحاسوب (الكمبيوتر) واستخداماته فقد حدث فيها حتى الآن تطورات كبيرة جعلت الناس تتعجب من هذا

الذكاء النادر الذى أصبحت تمتلكه أجهزة الكمبيوتر أما فى المستقبل فسنكون قادرين بفضل التقدم فى هذا المجال على التحكم فى هذه الأجهزة حسب رغباتنا وبحيث تلبى جميع احتياجاتنا العلمية والعملية .

أما بالنسبة للثورة البيوجزيئية فسوف تسمح «تكنولوجيا البيولوجيا الجزيئية أن نقرأ الشفرة الوراثية للحياة كما لو كنا نقرأ كتابًا .. وسُتحل شفرة الجينوم البشرى كاملاً بحلول عام ٢٠٠٥م معطية إيانا «دليل تشغيل» للكائن البشرى وسيجهز هذا المسرح للطب والعلم فى القرن الحادى والعشرين ، وبدلاً من مراقبة رقص الحياة ستعطينا الثورة البيوجزيئية فى النهاية قدرة خارقة على التحكم فى الحياة حسب إرادتنا تقريبًا» (ص١٨ - ١٩ من نفس الكتاب) .

ولنا أن نتصور الاكتشافات الهائلة المتسارعة التى يمكن أن تتحقق حينما تتقارب هذه الثورات العلمية الثلاث وتتضافر امكانياتها معًا فى تحقيق التقدم فى أى مجال من المجالات الثلاث كلا على حدة .

إن نهايات هذا القرن وبالتحديد من ٢٠٥٠ إلى ٢١٠٠ ستشهد بفضل هذا التضافر بين الثورات العلمية الثلاث صورة من التقدم

إن بدت الآن غامضة فهى حينئذ ستكون أكثر وضوحًا وتحققًا ؛ إنها ستشهد فترة تسيطر عليها تكنولوجيات جديدة تمامًا ؛ فقد تمتلك أجهزة الإنسان الآلى تدريجيًا القدرة على الإدراك الذاتى والوعى بنفسها ويمكن أن يسبب هذا زيادة كبيرة فى استخدامها فى المجتمع مما يمكنها من أن تتخذ قرارات مستقلة وأن تعمل كسكرتيرات وسعاة ومساعدين وخدم ... إلخ . وعلى نفس النحو ستتقدم ثورة «د. ن. ا» إلى النقطة التى يمكن عندها للعاملين فى مجال الجينات أن يبتكروا أنواعًا جديدة من الكائنات العضوية بما فى ذلك النقل ليس لبضعة جينات بل للمئات منها، وبهذا تتيح لنا أن نزيد من إمداداتنا الغذائية وتحسين الصحة وتطوير العقاقير، بل قد تصل بنا - كما يقول كاكو - إلى القدرة على تصميم أشكال جديدة من الحياة وأن نكيف التكوين الجسدى وربما العقلى لأطفالنا مما سيثير بدوره مشكلات أخلاقية عديدة .

أما تأثير نظرية الكم فسيكون خطيراً فى هذا القرن وحتى نهاياته لدرجة أنه يمكننا أن نشهد بدايات الصواريخ التى يمكنها أن تصل إلى النجوم القريبة منا وخطط تشكيل وتكوين المستعمرات البشرية الأولى فى الفضاء . ويرى بعض العلماء فيما يروى عنهم كاكو أن تقاربًا بين تلك الثورات العلمية الثلاث حوالى

عام ٢١٠٠ سيمكن أصحاب نظرية الكم من أن يقدموا دوائر ترانزستور وآلات كاملة بحجم الجزيئات تتيح لنا أن ننسخ النماذج العصبية للدماغ على كمبيوتر. ومن ثم سيفكر العلماء خلال تلك الحقبة فى مد فترة الحياة عن طريق تربية أجسام وأعضاء جديدة بواسطة التحكم فى تشكيلتنا الجينية أو حتى فى النهاية بالاندماج مع مخلوقاتنا الجديدة !!

إن هذه الصورة التى يرسمها كاكو وعلماء العصر الحالى لصورة الحياة البشرية فى المستقبل ليست بعيدة عما يرسمه خيال الأدباء ومصممو أفلام الكارتون للأطفال ، وهى فى ذات الوقت صورة تدعو إلى التساؤل الجدى حول مصير الإنسان العامل فى ظل هذا التقدم المذهل الذى قد يتحقق فعلاً؟! والتساؤل الجدى حول الحدود التى ستفصل بين ماهية الإنسان البشرى الحى، والإنسان الآلى القادر بفضل ما أودعه فيه الإنسان البشرى من ذكاء اصطناعى قد يتفوق يومًا على عقلية صانعه؟!

إن هذه التساؤلات حول المدى الذى سيحققه التقدم العلمى والتكنولوجى ينبغى أن تقلق مضاجعنا وتستفز عقول علمائنا ومفكرينا إذ الأمر جدى وليس هزليًا . إن علينا أن نتساءل مع كاكو عن كيف سيكون رد فعلنا عندما نستيقظ ذات يوم لنجد أن

أجسامًا مصنوعة من الفولاذ والبلاستيك أصبحت هى المتحكمة فى كل شىء ! . إن علينا أن نحدد من الآن إجابة على هذا التساؤل الضرورى : إلى أى مدى سنسمح للآلات أن تقوم بكل ما يمكن للإنسان أن يقوم به من عمل؟!

فالإجابة على هذا التساؤل ستحدد الإجابة على سؤال أكثر جوهرية بشأن المستقبل وهو : هل سنكون سادة الآلات أم ستصبح الآلات هى سادتنا؟!

إنها تساؤلات لا ينبغى أن تشغل بال العلماء فقط لأن العلماء يعنيهم فى المقام الأول تحقيق أقصى استفادة من القوانين العلمية وتحقيق أكبر قدر من النتائج العملية الناجحة المترتبة على اكتشافاتهم والتكنولوجيات القائمة عليها . ومن ثم فينبغى أن تشغل هذه التساؤلات عقول كل البشر وخاصة من يملكون القدرة الفكرية على التأثير فى التوجهات العلمية للتقدم البشرى ولا شك أن على رأس هؤلاء يأتى الفلاسفة وبعض العلماء الذين لا يزالون يملكون العقلية الشمولية القادرة على التأمل والتفكير بصورة إيجابية لصالح الحفاظ على إنسانية الإنسان!

(٢)

ينظر الكثيرون بانبهار إلى أهم الاكتشافات العلمية المعاصرة ألا وهو خريطة الجينوم البشرى وهو ما يعرف بتسلسل الـ د. ن.ا، وينتظرون بالطبع النتائج الإيجابية المذهلة لهذا الاكتشاف . وسرعة العمل فى حقل هذا الاكتشاف مكنت العلماء فعلاً من أن يفكوا الرموز الجينية لأكثر من عشرين مرضًا وراثيًا سببت آلامًا لا توصف للبشر على مر العصور السابقة بما فى ذلك تليف البنكرياس الحوصلى وضمور العضلات والأنيميا ومرض سيولة الدم الوراثى..إلخ .

ويتنبأ العلماء فى هذا المجال – حسب رواية ميتشيو كاكو فى «رؤى مستقبلية» – بأنه فى حوالى عام ٢٠٠٥ سيفك مشروع الجينوم البشرى رموز مائة ألف جين أو ما يقرب من ذلك مما سيتمكنون معه فى النهاية من رؤية الشفرة الجينية الكاملة للبشرية . وبحلول عام ٢٠١٠ ستزداد الأنماط الجينية للأمراض الوراثية إلى حوالى ٢٠٠٠ أو ٥٠٠٠ مما سيجعلنا على وعى بالأساس الجينى الكامل لهذه الأمراض القديمة ، ويقول أحد العلماء المهتمين بأنه بحلول ذلك العام سيستطيع أى شخص يبلغ الثامنة عشرة من عمره الحصول على بطاقة مطبوعة تحمل المخاطر الشخصية فى

التعرض للأمراض مستقبلاً بناء على الجينات التي ورثها . ويقول عالم آخر أنه بحلول عام ٢٠٢٠ أو ٢٠٣٠ على الأكثر سيمكنك الذهاب إلى الصيدلية لتحصل على تسلسل الـ د. ن. ا، الخاص بك على قرص مدمج بحيث تستطيع بعد ذلك فحصها في منزلك على جهاز الكمبيوتر الخاص بك ..

إن التقدم في هذا المجال سيتيح بحلول عام ٢٠٢٠ وحتى عام ٢٠٥٠ فهم الشبكة المعقدة للعلاقات المتبادلة بين الجينات وعلى الأخص بالنسبة للأمراض متعددة الجينات والتي تتعلق بأكثر من جين واحد وكيف تتسبب فيها عوامل من البيئة . ومن ثم سيمكن التغلب على أمراض عديدة مثل المرض العقلي ومرض الخوف المبكر والتهاب المفاصل وأمراض القلب وأمراض المناعة الذاتية . وقد ينجح العلماء في النهاية في علاج أمراض الشيخوخة ومن ثم يتحكمون إلى حد ما في إطالة عمر الإنسان . والخطير جداً أنهم يقولون أنهم قد يتمكنون في النهاية من التحكم في الحياة ذاتها!! إذ أن الثورة البيوجزيئية تبشر بمجموعة مذهلة من التطبيقات ومن المنتجات المهندسة بيولوجيًا التي ستغرق السوق إلى حد التوصل إلى إمكان التحكم في الحياة ذاتها (ص ١٨٨ من «رؤى مستقبلية»).

ولا شك أن هذه النتائج المتوقعة للتقدم فى هذا المجال تثير الكثير من التساؤلات والشكوك ؛ وبقدر ما سيسعد بها البعض لما ستتيحه لهم من إمكانية التحكم فى الأمراض والسيطرة عليها وعلاجها حتى قبل حدوثها، بقدر ما ستجلب من انتقادات المنتقدين بسبب التجاوزات الأخلاقية والدينية التى قد ترتكب لتحقيق ذلك . فهل نحن مستعدون لقبول هذه النتائج وما يترتب عليها من تجاوزات؟!

الحقيقة أن أى تقدم علمى أيا كان نوعه إنما يحقق للإنسان نتائج إيجابية وخيرة، بقدر ما يثير من تحفظات وبقدر ما يمكن أن يترتب عليه من نتائج سلبية تؤثر فى أخلاق الإنسان وسلوكه . ومن المهم فى كل الأحوال التقليل من هذه الآثار السلبية بالتنبه إليها وتعظيم الجوانب الإيجابية والاستفادة منها. وبين هذا وذاك الخيط الرفيع الذى يجب على العلماء فيه الاستماع إلى صوت العقل وصوت الضمير والتمسك بأهداب الإيمان الدينى العميق .

إن أحداً لا يرغب فى إيقاف البحث العلمى عند حدود معينة طالما أن الأبحاث تسير فى اتجاه يخدم الإنسان وتساعده على أن يعيش حياته متمتعاً بكامل الصحة وطول العمر ، لكننا فى ذات الوقت نتخوف من النتائج الخطيرة المترتبة على السير فى هذا

المجال إلى ما لا نهاية بحيث يمكن للعلماء أن يتلاعبوا فى أصل الحياة البشرية وأنسابها بأن يسيروا فى عمليات الإستنساخ وتصميم الأطفال فينقلوها من ميدان النبات والحيوان إلى الإنسان وهذا هو ما يفكرون فيه بالفعل!!

فالتنبؤات تشير إلى وجود مجال جديد يدعى «هندسة الأنسجة» أجريت من خلاله بالفعل تجارب على إمكانية صناعة الأعضاء البشرية بدأت بتجارب لصناعة الأنوف استخدمت فيها الكمبيوتر لرسم خريطة كنتورية لتصنيع الهيكل والخلايا الغضروفية اللازمة لزراعته ، وبعد أن أثبتت فعالية هذه التكنولوجيا على الأعضاء صغيرة الحجم فإن الخطوة التالية المتوقعة هى توليد وتصنيع أعضاء كاملة مثل الكلى والكبد خلال العشر سنوات القادمة . وليس هذا بغريب فقد تم مؤخراً سلسلة من الاكتشافات لتوليد العظام وقد نجح بعضها جزئيًا والهدف النهائى منها يكمن فى توليد عضو معقد كامل مثل اليد ، وإن كان ذلك الهدف قد يتأخر تحقيقه بعض الوقت فإن المؤكد أننا - كما يروى كاكو - نتوقع رؤية أنواع مختلفة من قطع الغيار البشرية متوافرة فى السوق من الآن حتى عام ٢٠٢٠ ولكنها ستقتصر فى الوقت الحالى والمستقبل القريب على تلك التى لا تتطلب أكثر من أنواع قليلة من الأنسجة أو

الخلايا مثل الجلد والعظام والصمامات والأذن والأنف. وبعد ٢٠٢٠ نتوقع وجود أعضاء وأجزاء أكثر تعقيداً من الجسم البشرى مثل الأيادى والقلوب والأعضاء الداخلية المعقدة الأخرى. وربما كان من الممكن بعد عام ٢٠٥٠ استبدال كل عضو فى الجسم ما عدا المخ! (ص ٢٨٣ - ٢٨٤) .

ولا يظنن أحد أن هذه مجرد أحلام وإنما هى تنبؤات لعلماء يبحثون ويحققون النجاح فى أبحاثهم عاماً بعد عام ، بل قل يوماً بعد يوم ومعظمهم ممن حصلوا على أعلى المراتب العلمية والجوائز الدولية لدقتهم الفائقة فى البحث والقدرة غير المحدودة على تحقيق النجاحات العلمية المتوالية .

وإذا كان ذلك كذلك ، فإننا قد لا نلومهم على هذه الأحلام شبه الواقعية فى استبدال الأعضاء البشرية الحقيقية المريضة أو المبتورة أو التى انتهت صلاحيتها بأخرى جديدة سواء أخذت من بشر آخرين كما هو حادث الآن أو نجحوا بالفعل وباستخدام هندسة الأنسجة فى تصنيعها. ولكن الخوف كل الخوف والفزع كل الفزع حينما نتحول من هذه الوقائع المفيدة، إلى تلك الوقائع المفزعة التى يثيرونها حول إمكان استنساخ الإنسان لدرجة أن أرثر كابلان عالم الأخلاق البيولوجية «يتنبأ بأن الإنسان المستنسخ

الأول سيظهر خلال سبع سنوات وحتى لو حُرم استنساخ البشر فمن المحتمل أن تتطور مع الزمن - كما يقول - صناعة استنساخ سرية» (ص٢٩٤) .

وقد يقل الاستنساخ خطراً عما تنجم عنه عمليات الهندسة الجينية؛ فإذا كان الاستنساخ لا ينتج سوى نسخة طبق الأصل لكائن ما، فإن بإمكان الهندسة الجينية تغيير الجينوم البشرى وبالتالى الجنس البشرى ذاته . ولكى نفهم الفرق فإن الحصول على نسخة مصورة من أعمال شكسبير أسهل بكثير من أن يقوم أحد بتطويرها .

إن التفاصيل التى يرويها ميتشيو كاكو عن العلماء وإمكانات تطوير عمليات الاستنساخ والهندسة الجينية ونقلها من مجال النبات والحيوان إلى عالم الإنسان تفاصيل مفزعة وتثير قضايا أخلاقية ودينية شائكة : فهل الاستنساخ البشرى عملية أخلاقية؟! وهل يمكن أن يقبلها الإنسان المؤمن بالله أيا كانت ديانته؟! وهل التحكم فى الجينوم البشرى بغرض إنتاج بشر أكثر قدرة وأكثر تقدماً مسألة أخلاقية ؟!

لقد تناقش رجال الدين فى الغرب بحرية وبجرأة حول موضوع الاستنساخ وتساءلوا ومعهم كل الحق : إن لكل شخص مستنسخ

«روح» واحدة فإذا أمكن استنساخ البشر دون أى حدود كما يرى العلماء وكما يتصورون فما الذى يحدد هويات هؤلاء الأشخاص المستنسخون؟! كما تساءل علماء وفلاسفة الأخلاق عما إذا كان من الصواب أخلاقيًا على الأقل فرض رغباتنا الجينية الخاصة على أجيالنا القادمة!! كما تساءل المحامون ورجال القضاء عن الحقوق الشرعية والقانونية لهؤلاء المستنسخين، وهل يمكن أن يتحملوا تبعات وذنوب وديون من سبقوهم وفى ذات الوقت هل يمكنهم ومن حقهم الحصول على امتيازاتهم وحقوقهم القانونية؟!

وإذا كان إنتاج هؤلاء الأشخاص عن طريق الاستنساخ لمجرد أخذ أعضائهم وزرعها لآخرين فما الذى يحدث لو رفض هؤلاء التضحية بأعضائهم؟!

لقد كان الأمر فيما مضى مجرد خيال سينمائى عبر عنه أحدهم فى فيلم شهير يدعى «أطفال البرازيل The Boys of Brazil» استنسخ فيه النازيون الجدد فتية من هتلر حتى يتمكنوا من إعادة بناء الرايخ الثالث ! ولكنه الآن مسألة جدية تمامًا . ولذلك بدأ الفلاسفة الغربيون يناقشون نتائجها ويحذرون من مخاطرها : فهذا جريجورى كافكا أستاذ الفلسفة بجامعة كاليفورنيا يحذر من حركة التطوير الجينى هذه على أساس أنها سترسى من جديد

مبدأ عدم المساواة الاجتماعية مجدداً حيث ستختفى الأرستقراطيات القديمة حسب المولد أو اللون أو الجنس لتستبدل بأرستقراطية جينية جديدة أو بما يمكن تسميته «طبقية جينية» . ومن شأن ذلك إيجاد تصدعات جديدة فى المجتمع الإنسانى حيث سيتوافر للأغنياء فقط إمكانية اختيار خطهم الوراثى!! (انظر نفس الكتاب، ص٣٣٢) .

وهناك آخرون يحذرون من خطر استخدام هذه التكنولوجيا الجديدة فى الحروب حيث يشيرون إلى مخاطر استخدام ما يسمى «بالأسلحة العرقية» وهى الجراثيم المحولة جينيًا والتى لا تهاجم الإجماعات عرقية أو أجناسًا محددة!! ولنا أن نتصور النتائج التى يمكن أن تترتب على استخدام أسلحة من هذا النوع فى حروب المستقبل!!

وقد حاول بعضهم استخلاص توجهات عامة تعالج القضايا الأخلاقية الشائكة من خلال ما سمى ببرنامج «القضايا الأخلاقية والقانونية والاجتماعية للعلم» فى الولايات المتحدة الأمريكية وكان أهم هذه التوجهات هى : العدالة للجميع : عدم التمييز الجينى، حق الخصوصية : منع إذاعة الأسرار، تقديم الرعاية الصحية : إتاحة الخدمات للجميع، الحاجة إلى التعليم ، رفع وعى الجماهير (نفسه، ص٢٦٦) .

ولكن إذا ما سلمنا جدلاً بأن هذه التوجهات قابلة للتنفيذ وهذا أمر مشكوك فيه تمامًا إذا لم يكن على مستوى الأفراد فعلى مستوى الدول والحكومات !! أقول إذا ما سلمنا جدلاً بذلك رغم عدم إمكانيته ، فقد تجاهلت هذه التوجهات المصالح القصوى للبشرية؛ فما قول هؤلاء من أصحاب هذه التوجهات فى القضاء على هوية الإنسان الفرد!! وفى القضاء على فعاليته ورغبته الدائبة فى تطوير ذاته وقدراته ، ليس عن طريق التلاعب فى الجينات وإنما عن طريق ممارسة حياة طبيعية خلقه الله مميزاً بها!! وما قولهم فى مدى خروج البشر إذا ما بدأوا التلاعب فى هذا المجال ومدوا طرف الخيط إلى نهايته ، ما قولهم فى خروج البشر هنا على طبيعتهم البشرية وعلى الحدود التى خطتها العناية الإلهية وأكدتها الشرائع السماوية للإنسان ؟!

إن التفكير فى إجابة ما على هذه التساؤلات والاستجابة إلى بعض ما طرحه المفكرون من أفكار وما أطلقوه من تحذيرات ينبغى أن يقود العلماء فى النهاية بفعل الضغوط الاجتماعية والسياسية والأخلاقية والدينية ، ينبغى أن يقودهم إلى وضع القيود على بعض أشكال التكنولوجيا ولا شك أن ذلك سيكون فى صالحهم كما أنه فى صالح البشر عموماً .

(٣)

استعرضنا فى المقالين السابقين صورة التقدم العلمى ونتائجه خلال القرن الحالى كما يرسمها ميتشيو كاكو ورفاقه المائة والخمسين من العلماء الذين استطلع رأيهم . وربما يكون السؤال الذى ألح على القارئ خلال ذلك هو : كيف ستؤثر هذه النظريات العلمية والمخترعات التكنولوجية فى الثورات العلمية الثلاث التى تحدثنا عنها فى حياة الإنسان العملية ؟!!

والحقيقة أن أثر التقدم العلمى على حياتنا فى المستقبل سواء القريب أو البعيد يمكن تخيله من خلال حياتنا الحاضرة ومدى ما تلعبه المخترعات والتكنولوجيات فيها ؛ فلا شك أن اعتماد الإنسان فى حياته على الآلات قد بدأ يتعاظم منذ منتصف القرن العشرين . ومن يراقب شاباً من شباب اليوم وهو يجلس أمام جهازه الخاص متصفحاً كل ما يجرى فى العالم من خلال اتصاله بشبكة الإنترنت سيدرك حتماً مدى التقدم الذى حدث ويستطيع أن يتصور شكل الحياة فى المستقبل !! وإذا كانت تصوراتنا لهذه الحياة المستقبلية يتسم بالخيال، فإن بمقدور العلماء والمتخصصين التنبؤ بصورة

أكثر دقة بشكل حياة الإنسان العادى من الطبقة المتوسطة فى المستقبل .

وبالفعل فقد رسم لنا كاكو فى كتابه «رؤى مستقبلية» صورة لحياة هذا الموظف العادى الذى يتعامل مع آخر ما توصلت إليها التكنولوجيا المتوافرة لديه فى العام ٢٠٢٠م ، فهذا الشخص سيستيقظ بواسطة وسيطه الذكى أو سكرتيره الالكترونى فى الوقت الذى حدده له سلفًا . وهو حينما يتحرك داخل منزله ستشعر أدوات المنزل بوجوده وخاصة أدوات مطبخه فيبدأ إبريق القهوة أو الشاى العمل ويحمص فرن البوتاجاز الخبز إلى الدرجة التى يريدها صاحبه، وتملأ الموسيقى المفضلة أرجاء المكان . ببساطة ستدب الحياة فى كل شىء داخل المنزل بالصورة التى برمجت عليها كل ما فيه من آلات . وليس بعيداً أن يجد هذا الموظف جريدته المفضلة أمامه وقد أعدها له سكرتيره الإلكترونى من خلال تصفحه شبكة الإنترنت وتقديم كل ما يحتاجه المرء من أخبار ومعلومات تجعله لا يحس بأنه قد نام ولو للحظة . فكل ما جرى فى العالم أثناء نومه أصبح متاحًا أمامه، وكل ما يهمه من معلومات

حول اليوم الجديد فضلاً عن أفضل برنامج لهذا اليوم سيجده معداً أمامه على المائدة .

وحينما يخرج صاحبنا من منزله تكون أجهزة تنظيف المنزل جاهزة لتبدأ عملها فور خروجه ، وتدب الحياة فى السيارة القابعة خارج المنزل حيث تبدأ أجهزتها فى العمل فتحدد له الطرق الأكثر سرعة وأمانًا وتحذره من الطرق المأهولة أو التى بها اشغالات . وحينما يتحرك صاحبنا بسيارته على الطريق السريع الذكى بما فيه من إشارات تعمل أتوماتيكيًا تتحول كل هذه الإشارات إلى إشارات خضراء تسمح له بالمرور طالما لا تحس بوجود سيارات أخرى قادمة من جهات مختلفة .

وبالطبع فإن فى سيارات المستقبل ما يحذر صاحبها من أى مكروه وخاصة من السيارات الأخرى ويعمل كل ما فيها على تجنب وقوع أى حوادث من شأنها تعكير صفوه .

وإذا ما وصل صاحبنا إلى مكتبه فإن بإمكانه قبل أن يبدأ عمله أن يستعرض من خلال شاشة العرض على حوائط مكتبه بريد الفيديو وبعض الفواتير ولا مانع من أن يدخل بطاقته الذكية فى

جهاز الكمبيوتر ليقوم شعاع ليزرى من التأكد من شخص صاحبه عن طريق قزحية عينه . أما الاجتماعات بزملائه من الموظفين فيمكن أن تتم من خلال الشاشة الجدارية نفسها .

وحينما يحين موعد الطبيب يخبره وسيطه الذكى بذلك بعد أن يقوم بالفعل بالاتصال بالطبيب الافتراضى الذى يظهر أمامه على الشاشة ليقدم له تقريراً عن حالته الصحية سواء طمأنه على سلامة كل أعضائه أم أبلغه بوجود مستعمرة سرطانية بدأت تنمو فى مصرانه الغليظ ويحدد له طريقة العلاج المناسبة .

وإذا ما كان لدى صاحبنا أية مواعيد مسائية يخبره بذلك ، وبينما ينتقل هو بين الضيوف تنقل له آلة التصوير الفيديوية الموجودة فى نظارته كل الموجودين وتطابق صورهم على النماذج المخزنة فى الذاكرة ويهمس له وسيطه الذكى بهوية كل شخص من الموجودين . وإذا ما أفرط صاحبنا فى الشرب فإن الوسيط الذكى يحذره من أنه إذا شرب أكثر من ذلك فلن يسمح له محلل الزفير فى سيارته بتشغيل السيارة !!

وبالطبع فإن كان لدى صاحبنا نية لشراء أى شىء فإن السوق الافتراضية تظهر أمامه موضحة كل تفاصيل المنتجات التى يريد

شراءها وأسعارها وكل ما عليه أن يختار من بينها ما يشاء ثم يقوم الوسيط الذكى بإرسال الفاتورة من بطاقة اعتماده الذكية ليتسلمها بعد ذلك بقليل .

وإذا قرر صاحبنا قضاء عطلة نهاية الأسبوع خارج مدينته أو خارج دولته فإنه بإمكانه تصفح ما شاء من شقق أو فنادق ليحجز له وسيطه الذكى ما شاء منها عن طريق بطاقة اعتماده الذكية ليقضى إجازته بدون أى جهد أو عناء .

على هذا ستمضى حياة صاحبنا المدلل الذى استبدل وسيطه الالكترونى بعقله الواعى وصارت حياته مرسومة سلفًا ويقوم على تنفيذها هذا الوسيط الذكى. وبالطبع فإن السؤال الذى قد يراودنا هو : هل حياة صاحبنا فى ذلك العام ٢٠٢٠ هى الحياة الجديرة بالإنسان؟! وهل حقًا يمكن للمساعدة الكمبيوترية من خلال هذا الوسيط الذكى أو السكرتير الالكترونى أن تحل محل التفكير الإنسانى المبدع المتمرد وهل كتب على الإنسان فى ذلك المستقبل القريب أن يعيش هذه الحياة الآلية الميكانيكية الخالية من العواطف وإمكانية الاستمتاع بالتسكع فى الأسواق والاستمتاع بمقابلة الناس ومراقبة انفعالاتهم والشعور بالدفء بينهم . إنها حقًا حياة

باردة بقدر ما ستريح الإنسان وتحافظ على صحته وربما تتسبب فى إطالة عمره ، بقدر ما ستسحب منه إنسانيته وعواطفه وانفعالاته!!

ولكن ربما تعود إلى نفس هذا الإنسان روح المغامرة والتحفز إذا ما نظرنا إلى حياته فى المستقبل الأبعد قليلاً ، أى فى حوالى ٢١٠٠م أو بعد ذلك بقليل ، فإن إنسان القرن التالى على قرننا الحالى سيتجه إلى غزو الفضاء ليستعمر الكواكب الأخرى ويسكنها بدلاً من الأرض .

إن تنبؤات علماء الفيزياء تشير إلى أن مصير البشرية يكمن فى النهاية فى الحياة وسط النجوم؛ إذ يقولون «أن من المحتم أن تدمر الأرض فى وقت ما فى المستقبل» (ص٤٠٨ من «رؤى مستقبلية»)، ولذلك فإن أبحاثهم تتجه إلى وضع برامج محددة للهجرة إلى النجوم. ولقد كتب أحدهم قائلاً : إن حياة الإنسان أغلى من أن تتقيد بكوكب واحد، وكما أن أجناس الحيوان تزيد من فرص بقائها بالإنتشار والهجرة إلى مناطق مختلفة فإن على البشرية أن تستكشف فى نهاية المطاف عوالم أخرى من أجل مصلحتها الخاصة على أقل تقدير . إن قدرنا هو أن نتجه إلى النجوم (نفس الصفحة) .

وهكذا يبدو أن حياة الإنسان لا بد أن تحمل الجديد باستمرار، وإن ضاقت الحياة على الأرض باستكشاف الجديد، غادرها الإنسان ليظل دومًا في سعيه إلى ما لا نهاية له من الآمال والأحلام التي إن تحقق بعضها ظل البعض الآخر مطاردًا حتى يتحقق. فهل حقًا يمكن أن يهاجر البشر يومًا من الحياة على الأرض إلى الحياة فوق كواكب أخرى أو حتى على ظهر النجوم . إن الأمر حقًا يدعو إلى العجب بقدر ما يدعو إلى التأمل والتدبر والعمل من أجل مستقبل يراه العلماء قريبًا ونراه نحن من قبيل المستحيلات!

ثانياً

هل يكون

القرن الحادى والعشرون

" قرن آسيا "؟!

(١)

تعد "قراءة المستقبل" ضرورة لمن يودون المشاركة الفاعلة فيه . ولذلك فإن فلاسفة التاريخ من الأوربيين والأمريكيين فضلاً عن المؤرخين والعلماء مشغولون دومًا بقراءة واعية للمستقبل فى كل مجالات الحياة.

وتتجه معظم هذه القراءات إلى التأكيد على أن المنافسة الحضارية ستكون فى مطلع هذه الألفية وطوال هذا القرن الجديد منحصرة بين الغرب من جهة، وبين "الإسلام" و "آسيا" من جهة أخرى.

وإذا كنا نحن نتمنى بالطبع أن يكون "الإسلام" والمسلمين هم أصحاب الحظوة فى تحدى الحضارة الغربية وتقديم البديل الأقوى لعالم اليوم، فإن الواقع الموضوعى يوجهنا دومًا وفى هذه الآونة بالذات إلى أن "آسيا" وخاصة قوتيها العظيمتين "الصين" و "اليابان" هم الآكثر تأهلاً وقدرة، وهم الأقرب إذا ما اتحدت مصالحهما وتجاوزا خلافاتهما المصطنعة (بفعل التأثير الأمريكى ونفوذه على اليابان)، هم الأقرب إلى "السيادة" فى المستقبل القريب الذى لن يتعد منتصف القرن الحادى والعشرين.

لقد عرض صمويل هنتنجتون الأستاذ بجامعة هارفارد فى كتابه الشهير "صدام الحضارات" لسيناريو مزعج للصدام السياسى والعسكرى بين الصين والولايات المتحدة الأمريكية يبدأ منذ عام ٢٠١٠م ولكن هذا العرض لم يلق القبول من معظم مفكرى الغرب نظرًا لأنه ركز على أن "الصدام" و "الحرب" سيكونان هما لغة الصراع!! بينما يرى هؤلاء أن هذا الصدام لن يكون بالضرورة عسكريًا، والأقرب إلى الواقع أن يتمخض الحوار بين القوتين الأمريكية والصينية عن صعود قوة "الصين" بهدوء وواقعية تبدو بوادرها ودوافعها ونتائجها ماثلة للعيان من تصرف زعماء هاتين القوتين إلى الآن فى كل الأزمات التى تبدو بينهما!!

وعلى ذلك فنحن نعتقد مع دانييل بورشتاين وارنيه دى كيزا أن "فرضية هنتنجتون فرضية بالغة التطرف وسكونية إلى حد بعيد" (ص٣٧٦ من كتابها: التنين الأكبر - الصين فى القرن الواحد والعشرين، ترجمة شوقى جلال - سلسلة عالم المعرفة - الكويت ٢٠٠١م).

وهى فرضية تتغافل عن ما فى العلاقات بين الصين وأمريكا من مرونة وديناميكية، فضلاً عن أن الصين تبدو الآن أكثر من أى وقت مضى قادرة على تأكيد جذورها الحضارية واستعادة ماضيها

كقوة عظمى وحضارة عريقة تتمركز حول "قيم كونفوشية" قابلة للتجدد باستمرار، كما أنها قادرة فى ذات الوقت على استيعاب الكثير من القيم الغربية الإيجابية التى لا تتعارض مع قيمها التراثية العريقة.

إن هذه الديناميكية والمرونة التى تلتزم بها الصين فى محاولة صهر قيمها التراثية مع قيم الحداثة الغربية كانت بلا شك سر هذا التقدم المذهل الذى تحققه عاماً بعد عام، وحقبة بعد أخرى؛ فقد خرجت الصين من عباءة التخلف إلى آفاق النمو والتقدم على يد زعيمها الشهير ماوتسى تونج وقادة الحزب الشيوعى الصينى، ثم نجحت بعده فى أن تستمر فى طريق التقدم المطرد بتلك المواءمة الفريدة بين الحفاظ على الطابع الاشتراكى لنظامها الاجتماعى والاقتصادى والسياسى، وبين تلك الاصلاحات الرأسمالية التى عبر عنها القادة الإصلاحيون بقولهم "مجتمع واحد ونظامان".

وقد أثبت الصينيون للجميع أنهم يستطيعون ببراعة إقامة هذا التوافق بين المصالح العليا لمجتمعهم بثقافته التقليدية وبين طريقة تحديث هذا المجتمع بتغذيته بثقافة التقدم الغربية . لقد تصور الغربيون - على حد تعبير بورشتاين ودى كيزا- أن النزعة الاستهلاكية لدى جيل الشباب من الصينيين وتطلعهم إلى مستوى

معيشة مرتفع وأساليب حياة أكثر حرية سوف تجعلهم مؤيدين صرحاء لمزيد من التحول إلى سياسة غربية الطابع في المستقبل (ص٢٣٠ من نفس الكتاب)، لكن الواقع الصيني يؤكد يومًا بعد آخر أن العمق التاريخي للشعب الصيني واحترامه لثقافته التقليدية يحولان دون هذا التحول التام نحو الديمقراطية بمفهومها الغربي. وهذا ما يعبر عنه الصينيون بصور شتى؛ فقد سئل رأسمالي صيني ملتزم بالحداثة الغربية في كل مظاهرها عن ذلك فكانت إجابته: أنا لا أختلف مع الاشتراكية في شيء علينا فقط إصلاحها وليس الثورة ضدها. وعندما أجرى مراسل صحافي لقاء مع سونج قيانج أحد الكتاب الشباب ذوي النزعة الوطنية الجديدة ومؤلف كتاب "الصين تستطيع أن تقول لا" الذي صدر عام ١٩٩٦ وحقق أكثر الكتب مبيعًا، وجده لا يكف عن تكرار فكرة كتابه الرئيسية أنه يقول لا فقط للثقافة والأيدلوجية وأنساق القيم الأمريكية! وحينما سأله لأي شيء يريد أن يقول "نعم" ؟ قال سونج: للقيم التقليدية التي تعلمناها من كونفشيوس ومن الطاوية (نفسه ، ص٢٣١).

إن هذه الروح الصينية التي يتمسك بها الصينيون في مواجهة عالم اليوم الذي تسيطر عليه تلك القيم الغربية هي التي ستجعل من الصين القوة الكبرى في عالم الغد لأنها ببساطة تمتلك أكبر

قوة بشرية عاملة قادرة على تلقى نظم التحديث الغربية والتفاعل معها لصالح مصلحتها القومية.

إن عدداً لا بأس به من كبار الاقتصاديين يتنبأون بضرورة "صعود الصين" كقوة اقتصادية أولى فى العالم، وقد لخص هذه التنبؤات مؤلفًا "التنين الأكبر" بقولهما فى مدخل كتابهما "أن الصين إذا ما سارت الأمور رخاء كما هى الآن مهيأة لأن تصبح حوالى العقد الثالث من القرن الواحد والعشرين أكبر اقتصاد قومى فى العالم" (ص٧).

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

وإذا كان المضاربون بالهبوط يتذمرون من هذه التنبؤات التى تتنبأ بالسطوة الاقتصادية للصين ويقولون أن كل مفاسد الصين القديمة من الدعارة إلى المقامرة، من جرائم العنف إلى التسول، تلك المفاسد التى كانت قد قضى عليها فى ثورة ١٩٤٩ قد عادت ثانية إلى الحياة مع حرارة السوق التى أذابت قيود الماوية، فإن المضاربين بصعود الصين يردون على لسان جيم رووير المحرر الاقتصادى للايكونومست وهو الآن المسؤول عن آسيا «أنه على الرغم من المشكلات، لن يمكن إيقاف الصين صاحبة التجربة فى الإصلاح الاقتصادى وهى تجربة مذهلة تجاوزت حدود أحلام أى إنسان» (ص٢٠٣ من نفس الكتاب السابق). ويؤيده فى ذلك

ناصيت قائلاً «إن ما يجرى فى آسيا يمثل الآن أهم تطور فى عالم اليوم .. ولكون الصين مركزها فستصبح الإقليم المهيمن على العالم اقتصاديًا وسياسيًا وثقافيًا» (نفسه).

والطريف أن قادة الصين أنفسهم يبدون أكثر حذرًا فى تقدير مستقبل تقدمهم الاقتصادى بدرجة قد تدعو البعض إلى التعجب! فهذا دنج هسياوبنج الزعيم الصينى يقول بكل تواضع أنه «مع منتصف القرن الواحد والعشرين ستكون الصين قد بلغت المستوى الاقتصادى لبلد نام متوسط» (نقلاً عن نفس الكتاب، ص٢٠٥). وبالطبع فإن هذا الحذر وذلك التواضع الذى يبديه الصينيون وقادتهم إنما هو قيمة نابعة من تراثهم الفكرى، فضلاً عن كونه ضرورى فى مواجهة القوى الغربية التى تنظر إلى القوة المتنامية للصين بقدر كبير من الترقب!!

وإذا كان السؤال الملح هو: إلى أى اتجاه نميل : هل نحن مع المتفائلين بمستقبل الصين أم مع الذين ينظرون إلى هذا التفاؤل بحذر؟ أو بمعنى آخر: هل نحن مع القول بالسيادة الصينية فى المستقبل أم مع القائلين بأن عوائق عديدة تحول دون هذه السيادة!!

لا شك أن الحقيقة دائمًا تكون ضبابية غير واضحة حينما يتعلق الأمر بمحاولة تأكيد أى شىء مستقبلى. فالمستقبل لا يحدده قراءة الحاضر فقط، ولا يحدده النظر إلى العامل الاقتصادى وحده، كما أنه لا يتحدد بالنظر إلى إنجازات هذا الشعب وحده، بل دائمًا ما ينبغى أن يحدد فى ضوء ردود فعل الشعوب الأخرى وما تفعله هى الأخرى بشأن مستقبلها!!

وعلى ذلك فكل ما نستطيع قوله أن رهان الصين العظيم فى تحديها الحضارى هو استلهام تراثها الكونفوشى بما فيه من حض على معاملة كل الناس تلك المعاملة الطيبة التى تحقق العدالة بالعمل دومًا من أجل الآخرين بإنصاف ونزاهة، فهذا الاستلهام هو ما سيجعل الصين الجديدة قادرة دومًا على محاربة كل صور الفساد والأنانية والمادية المفرطة وهى بلا شك الأمراض المزمنة للحضارة الغربية التى تؤذن حقًا بانهيارها!

إن الأزمة الحقيقية فى الثقافة الغربية وبالتالى فى الحضارة الغربية هى ذلك التضارب المزعوم بين قيم العلم وبين قيم الأخلاق والدين. وفى هذا الصدد نجد أن الحضارة الصينية يمكن أن تكسب الرهان لأنها تتفوق باستنادها على ذلك الفكر الكونفوشى الذى يقدم نزعة إنسانية - غير دينية تشكل أساسًا أخلاقيًا عادلاً

لحياة بشرية أكثر توازنًا. ومن شأن هذه الثقافة - وهى الثقافة التقليدية لكل الصينيين بل لمعظم الآسيويين أن تكون أكثر ملاءمة للحقبة القادمة من القرن الحالى، وهى من ثم مؤهلة - على حد تعبير البعض - لأن «تحل محل الثقافة الغربية الحديثة والمعاصرة» (عن نفس الكتاب السابق، ص٣٨٥).

إن هذا التفوق الثقافى إذا ما نجح الصينيون فى استثماره جيدًا، بالإضافة إلى استمرارهم فى معدل النمو الاقتصادى المتسارع الذى يحققونه الآن، فضلاً عن مرونتهم فى التعامل مع أى أزمات سياسية أو اقتصادية أو أى نزاعات حدودية مستقبلة، سيكون هو العامل الحاسم فى التفوق الصينى فى مواجهة أى قوة عظمى أخرى فى العالم خاصة حينما تنضم تايوان إلى التنين العظيم بعد أن انضمت إليه هونج كونج فى نهاية القرن الماضى فحينئذ سيكتمل عقد التنين ويكون هو القوة المهيمنة الرئيسية فى آسيا ومن ثم فى العالم.

وإذا كان ذلك سيصبح كذلك فما هو موقف القوة العظمى الأخرى فى آسيا الآن: اليابان وما موقف بقية الدول الآسيوية، هل ستنحاز إلى الصين أم إلى الغرب الذى لا يزال مهيمنًا على معظم شئونها حتى الآن؟! هل ستتكتل آسيا وتتحول بشكل أو بآخر إلى

كتلة اقتصادية واحدة رغم تباين الثقافات واختلاف الديانات وتنوع الأهداف وصراع المصالح؟! أم أن هذه الصور من الاختلاف ستتدعم فى المستقبل وتحل محل ما يمكن أن نتصوره من تقارب؟! وبمعنى آخر هل ستتوحد آسيا - رغم كل المعوقات الداخلية - متغلبة على عوامل العرقلة التى تدسها بين آن وآخر قوى الغرب ذات المصالح القوية فى آسيا؟ وهل ستنجح الشعوب الآسيوية متحدية عوامل الضعف الداخلية، وعوامل بث الفرقة الخارجية فى توفير الحد الأدنى من توحيد المصالح والأهداف فتكون بحق القوة العظمى الوحيدة فى عالم القرن الواحد والعشرين؟!.

(٢)

إن الحقيقة التى لا يستطيع أن يغفلها أحد حين يقرأ أو يحاول أن يقرأ مستقبل آسيا هى أن اليابان ستكون صاحبة الدور الأكبر فى السيادة الآسيوية بالإضافة إلى الصين، فإن كان من المقدور أن يحدث التقارب المنشود بين الصين واليابان لدرجة توحد المصالح والأهداف بعيداً عن الهيمنة الغربية وبالذات الأمريكية، فإن السيادة حتمًا ستكون لآسيا؛ فكل الدول الآسيوية الأخرى سواء المتخلفة أو النامية أو الآخذة سبيل التقدم، كلها تدور شاءت أم أبت فى فلك هاتين القوتين الاقتصاديتين الكبيرتين: الصين واليابان فهل يمكن قراءة المستقبل بالنسبة لليابان، ومدى تقاربها مع الصين؟! هذا هو السؤال الأهم فى موضوعنا، وهو أصعب الأسئلة التى يمكن أن يجاب عليها بنعم أو بلا وخاصة فى الوقت الحاضر!!.

وصعوبة الإجابة على هذا التساؤل الأخير تكمن فى تلك العلاقة المركبة الغامضة بين أمريكا واليابان؛ فمنذ احتلال أمريكا لليابان عام ١٩٤٥م، بدأ الأمريكيون محاولة صياغة اليابانيين عن طريق خطة طموحة ليعاد صناعتهم على الطريقة الأمريكية، تلك المحاولة التى يمكن أن نطلق عليها "أمركة اليابان" ورغم مرور السنين

وظهور اليابان كقوة اقتصادية عالمية كبرى تكاد تنافس السيادة الاقتصادية الأمريكية بل وتتفوق عليها فى بعض الجوانب، رغم ذلك "فلا تزال صورة اليابان التى صنعت بعد الحرب مقبولة على نطاق واسع. وهى تنعكس فى معاملة واشنطن لطوكيو التى تشبه الطريقة التى تعامل بها القوى الاستعمارية بلداً تابعاً»، وهذا هو ما جاء على لسان باتريك سميث المحرر الصحفى الأمريكى الذى عمل لأكثر من أربعة عشر عاماً مراسلاً صحفياً للصحف الأمريكية والإنجليزية فى آسيا فى كتابه «اليابان - رؤية جديدة» الذى نقله إلى العربية مؤخراً فى سلسلة عالم المعرفة سعد زهران (الكويت - إبريل ٢٠٠١م-- ص١٩).

إن هذه الصورة الأمريكية لليابان وصلت حداً جعل الأمريكيون ينظرون إلى اليابان ككل كشركة متحدة . Japan Inc «لقد صبت الأمة اليابانية بكاملها --على حد تعبير سميت فى نفس الكتاب السابق - فى قالب شركة متحدة، وأهلها مستخدمون لا مواطنون. وما تزال هذه الفكرة عن اليابان مأخوذاً بها فى الغرب كفكرة أصيلة» (ص١٩) والمدهش فى الأمر أن اليابانيين أنفسهم لا ينكرون هذه الفكرة ولا يرفضونها بشكل واضح؛ فقد درج البابانيون على تأييد الأهداف الأمريكية «حتى لو كانت تتعارض

مع المصالح اليابانية» (نفسه، ص٢٧) وفى المقابل يتظاهر الأمريكيون بالاقتناع «بأن اليابان دولة مستقلة، لكنها ليست - أساسًا- إلا محمية عسكرية، وهو أمر يدركه اليابانيون كما تدركه غالبية الأمم الأخرى إلا الأمريكيين» (نفسه).

فهل هذه العلاقة المركبة بين اليابان وأمريكا والتى يبدو بمقتضاها أن استقلال اليابان الاقتصادى والسياسى غير كامل، هل هذه العلاقة ستستمر على هذا النحو : يابان متقدمة اقتصاديًا وتكنولوچيا لكنها تابعة سياسيًا للولايات المتحدة وان اختلفت المصالح تغلبت المصالح الأمريكية على المصالح اليابانية؟!!

الحقيقة أن الأمر لن يظل علي هذا النحو إن لم يكن فى المستقبل القريب، ففى المستقبل البعيد!

إن اليابانيين شرقيون فى الأساس، آسيون شكلاً وعقيدة وفكرًا، والموروث عندهم يمكن أن يتأثر بالحديث ويتشكل به طلبًا للتحديث وصنعًا للتقدم لكنه -أى الموروث- لا يموت، بل هو فى واقع الأمر، هو ما يميز التجربة اليابانية فى التحديث، تلك التجربة التي لا تزال فى تسارع تقدمها مثار دهشة العالم أجمع.

لقد نجح اليابانيون فى أن يغيروا اتجاههم التاريخى مرتين خلال العصر الحديث؛ الأولى مع الإحياء الميجى فى ١٨٦٨م لتبدأ

اليابان تبنى دولة صناعية. والثانية بعد الهزيمة فى الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥م حيث تبنت نظامًا ديمقراطيًا على الطريقة الأمريكية - أو على الأقل مظاهرها وفى الحالين كانت النتائج ملموسة أقام الميجى فى اليابان مصانع الصلب وترسانات السفن ومصانع الأقطان والسكك الحديدية، وجلب الأمريكيون حق الاختراع وتحرير المرأة وحرية القول وأصبح فقراء الريف ملاكًا (باتريك سميث، نفس الكتاب، ص٨).

وهذا التغيير الذى شهده اليابانيون فى الماضى وصنعوه ونجحوا تمامًا فيه سيكون بلا شك هو دافعهم الأكبر لتغيير آخر مع نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحالى، ولا أشك أن اليابانيين الآن فى طريقهم إلى صنع هذا التغيير الجديد وهذا التغيير الجديد الذى يتبلور الآن سيعيد فيه اليابانيون - على حد تعبير سميث - صياغة أنفسهم وإعادة تشكيلها من جديد» (ص١٠). والمرجح من وجهة نظر سميث أن هذا التغيير سيجعل من اليابان - رغم أى مشكلات تواجهها - أكثر قوة، وأكثر قدرة على فرض مكانتها، وأكثر قدرة على اتخاذ قراراتها بفكرها وإرادتها، وذلك لسبب بسيط هو أنه من الأرجح أن يتحلى مواطنوها بهذه الصفات جميعًا» (نفسه، ص١٠).

إن هذا التغيير الذى يطرأ الآن على الشخصية اليابانية يبدو فى صور متعددة أقواها بلا شك فى نظام التعليم الذى يركز لا على تحديث الفرد اليابانى وتعويده على التعامل الإيجابى مع منجزات العصر التكنولوچية والإبداع فى مجالاتها المتعددة فقط، بل على تصنيع الفرد اليابانى المنتمى لبلده وتراثه، المحارب من أجل شركته والذى يتفانى فى عمله من أجل مصلحة بلده وتقدمها، «إن التعليم فى اليابان - كما قال أرينورى مورى أول وزير للتعليم فى اليابان عام ١٨٨٥ - ليس الهدف منه تكوين أناس يتقنون تقنيات العلوم والآداب والفنون، وإنما هو تصنيع الأشخاص المطلوبين للدولة» (نقلاً عن نفس الكتاب، ص١٠٣) ولا يزال هذا هو الهدف من التعليم اليابانى حتى اليوم، وهذا ما يعبر عنه أحد مديرى المدارس اليابانية المعاصرة بقوله: «أن نعلم النشء الصدق والحقيقة، هذا أمر مهم، ولكن الأمر الأهم هو أن نعلمهم أن يكونوا يابانيين» (نفسه ص١٠٩).

وإذا كان النظام التعليمى يركز على هذا البعد القومى وتنميته فى نفوس اليابانيين منذ مطلع عصر النهضة اليابانية الحديثة حتى الآن، فإن البُعد القومي فى السياسة اليابانية بدأ يظهر على السطح حينما اختار اليابانيون مؤخراً رئيس وزرائهم الحالى

كويزومى الذى يركز فيما يبدو على هذا البُعد القومى للشخصية اليابانية وإحياء ذكرى عناصر القوة اليابانية.

وقد ظهر فى اليابان مؤخراً مفردات لغوية جديدة تصف المواقف والسلوكيات التى بدأت تتغير لدى اليابانيين العاديين تجاه أمريكا، فثمة كلمة هانباى hanbei (الخصومة مع أمريكا)، وكلمة كانباى kenbei (أى النفور من أمريكا)، وبوباى Bubei (أى احتقار أمريكا) وقد راجت الكلمتان الأخيرتان - فيما يقول باتريك سميث كرد فعل للمعاملة الفظة التى لقيتها طوكيو من واشنطن أثناء أزمة الخليج. والحقيقة أن هذه الكلمات ليست توصيفًا لمواقف البيروقراطية؛ فوجهة النظر البيروقراطية المناظرة هى "الأسينة Asianism وهى سياسة تدعو للتوجه نحو آسيا مع الابتعاد عن أمريكا والغرب .. والأسينة نغمة قديمة ومتكررة فى الفكر اليابانى وفى الوقت الراهن هى أقرب إلى أن تكون انعكاسًا للاعتماد الاقتصادى المتبادل المتنامى بين الدول فى المنطقة الآسيوية، فهى لها جذورها فى الحقائق الإثنية والثقافية تاريخيًا. وبالطبع فإن الآسينة مثلها مثل كلمتى قانباى وبوباى (النفور من أمريكا واحتقارها) تنبع جزئيًا كرد فعل لنظرة أمريكا المتعالية تجاه اليابان، كما تنبع أيضًا من إدراك أن خط أمريكا فى انحدار (نفسه ، ص٤٢٦).

تلك الشهادة الأخيرة من باتريك سميث تكاد تصف الواقع الذى يتفاعل الآن داخل الإنسان الياباني، وهو الحاضر الذى يمكن من خلاله استشراف المستقبل. فإذا كانت أمريكا بالفعل تتجه نحو الانهيار كقوة اقتصادية وسياسية وعسكرية وحيدة فى العالم. وقد برهن على ذلك بما لا يدع مجالاً لأى شك الحادث المأساوى الأخير الذى تعرضت له رموز القوة الأمريكية حينما تم فى الحادى عشر من سبتمر الماضى تدمير أبراج مركز التجارة العالمية، وضرب مقر وزارة الدفا ع الأمريكية، وكذا محاولة ضرب مقر وزارة الخارجية والبيت الأبيض الأمريكى وما تلى ذلك من أحداث أثبتت هشاشة النظام الأمريكى فى معالجة مثل هذه الأحداث الجسام بالحكمة والتعقل المطلوبين من قوة عظمى تدعى أنها قادرة على حكم العالم والحفاظ على أمنه!!

أقول إذا كانت أمريكا بالفعل قد آن أوان انحدارها، فى الوقت الذى تنمو فيه قوة الصين والنمور الآسيوية الجديدة، فإن من الطبيعى أن تلتفت اليابان إلى الاهتمام بمجالها الحيوى الطبيعى وهو جيرانها من الآسيويين وخاصة أن كل التنبؤات تشير إلى أنه بحلول نهاية الربع الأول من هذا القرن الواحد والعشرين ستكون الصين هى القوة الاقتصادية المهيمنة فى آسيا وربما ستكون القوة الأولى فى العالم.

إن المحللين الاقتصادين يتنبأون بأن المصالح الصينية - اليابانية ستتوافق فى ذلك الوقت غير البعيد من القرن الحالى، وستصبح هذه المصالح المشتركة بين الدولتين الكبيرتين فى آسيا نقطة الارتكاز بالنسبة لأكثر من عشرة نظم اقتصادية آسيوية تربطها الآن بالصين آلاف الخيوط ويرى دانييل بورشتاين وأرنيه دى كيزا مؤلفًا كتاب "التنين الأكبر" أن هذا التحول سيجعل من القرن الواحد والعشرين هو "قرن آسيا" (انظر ص٤١٩ من الترجمة العربية الصادرة عن عالم المعرفة بالكويت يوليو ٢٠٠١م).

وفى اعتقادى الشخصى أن هذا التقارب والتوحد بين مصالح الصين واليابان آت آت؛ فعوامل التقارب بينهما من عمق تاريخى وحضارى واحد، إلى تشابه فى العقيدة واللغة، إلى العوامل الجنسية المشتركة، إلى التقارب المكانى وفى العادات والتقاليد. كل ذلك إذا أضيف إليه توحد المصالح الاقتصادية فى العصر الحاضر، وما يواجهه الصينيون واليابانيون من ضغوط غربية وأمريكية وإن تباينت أغراضها وتلونت أشكالها، أقول إذا أضيف هذا الحاضر الضاغط بظروفه الداعية إلى التوحد فى الأهداف لنيل أعظم الفائدة اقتصاديًا وسياسيًا من الاتجاه إلى "الآسينة"،

إلى ذلك الماضى المشترك الذى فيه من عوامل التقارب والترابط أكثر مما فيه من عوامل الفرقة والاختلاف، إذا أضيف هذا إلى ذاك ستكون الإستجابة الآسيوية قوية وشاملة تجاه التحدى الغربى وخاصة فى ظل الظروف الراهنة التى تجعل من الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية قوة مسيطرة غاشمة، تقوم على قهر إرادة الشعوب لا على الحوار معها والإستفادة المتبادلة بينها، تقوم على معاملة الآخرين كتابعين وخدم للمصالح الغربية لا مشاركين متكافئين فى صنع التقدم للبشر أجمعين!!

إن هذا التقارب الصينى - اليابانى، والاتجاه معًا نحو ما يسمى "بالآسينة" سيكون بلا شك أحد أهم معالم النصف الثانى من القرن الحادى والعشرين وربما لا يأتى هذا التاريخ إلا وهو يحمل معه "آسيا" كأكبر قوة اقتصادية وسياسية فى العالم رغم كل المعوقات والعراقيل التى ستحاول القوى الغربية وضعها أمامها أو فرضها عليها!!

إن قطار التاريخ يتحرك الآن رويداً رويداً صوب الشرق ويتأرجح وصوله بين محطتين والأرجح أن تكون محطته الأخيرة فى

هذا القرن فى آسيا وخاصة فى عاصمة إحدى هاتين القوتين: الصين واليابان وأعتقد أن هذا العداء المتنامى الآن بين الغرب والمسلمين وربما الصراع بينهما وهو بلا شك صراع غير متكافىء سيتيح للقوة الآسيوية أن تحقق أكبر استفادة لتلقى هدية الصراع وهى بلا شك ستكون فى صالح السيادة الآسيوية وخاصة حينما تكشر آسيا عن أنيابها وتقف مع المظلوم (الإسلام والمسلمين) فى وجه القوة الغاشمة الظالمة (أمريكا والغرب)، حينئذ ينتفض المارد الشرقى ويتجه نحو التوحد ضد الاستعلاء الغربى ويسلم قياده إلى التنين الآسيوى الذى ربما يكون أكثر قدرة على تحقيق العدالة التى فقدها العالم كثيراً فى ظل الهيمنة الغربية منذ عصر الإستعمار المفضوح إلى عصر الإستعمار الاقتصادى والسياسى والثقافى!!

ثالثًا

هل يكون
" الإسلام" هو البديل
اليوتوبى للمستقبل ؟!

(١)

لم يخلو الفكر الإنسانى فى أى عصر من عصوره من حالمين بعالم أفضل ولعل بعضهم قد نجح فى تحقيق حلمه إما بنفسه أو بواسطة من اقتنعوا بصورة العالم الأفضل الذى تضمنه فكر هؤلاء الحالمين من الفلاسفة.

ففى الزمن القديم كان أول حلم بمدينة فاضلة قد تحقق على يد صاحبه الملك المصرى - اخناتون، الذى حلم بدولة عالمية واحدة يحكمها قانون واحد ويعبد أهلها الإله الواحد. وقد نجح اخناتون فى تحقيق حلمه فى ظل توليه حكم الإمبراطورية المصرية مترامية الأطراف فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، فأسس عاصمة ملكه فى مدينة جديدة أطلق عليها اخيتاتون حقق فيها كل ما طمح إليه من صورة للمدينة المفتوحة الفاخرة المبانى المؤهلة لأن تكون عاصمة لعبادة الإله الواحد - الأحد «آتون» وتغيرت فى عصره صورة الفنون والآداب لتصبح مواكبة لهذا الدين الجديد الذى كان هو فى نفس الوقت الداعى إليه والساهر على رعاية أتباعه.

ومنذ ذلك التاريخ البعيد لا يكف الفلاسفة والمصلحون عن الحلم بالمدن والدول الفاضلة، فقد حاول كونفشيوس حكيم الصين الشهير في القرن السادس قبل الميلاد بنفس الطريقة أن يحقق حلمه بالدولة المثالية الفاضلة في ولاية "لو Lu" الصينية القديمة حينما قدر له أن يكون كبيراً لوزرائها وقد لاقت أفكاره نجاحًا واضحًا حيث أصبحت الولاية مقصد كل الصينيين لما تمتعت به من رفاهية واستقرار . لكن هيهات للمدينة - الدولة الحلم أن تستمر في ظل بشر جبلوا على الشر والنكوص فقد واجهت المدينة الفاضلة الفشل لما حيك لها من مؤامرات أثرت في حاكمها وجعلته يغادرها إلى غير رجعة . ونفس الشيء كان قد حدث لدولة اخناتون الفاضلة حيث عاد المصريون بعد مماته إلى سيرتهم الأولى من عبادة الآلهة المتعددة وعلى رأسها إلههم الشهير "آمون" وحطموا كل ما دعى إليه اخناتون من فكر مستنير حول الألوهية وواقعية الآداب والفنون وحول شفافية العبادة ورقى الأخلاق!!

ولم يمضى زمنًا طويلاً على هاتين المحاولتين الشرقيتين القديمتين حتى جاء أفلاطون الفيلسوف اليوناني الشهير ليعلن في كتابه "الجمهورية" عن أول مدينة مثالية فاضلة يعرفها البشر

مكتوبة معالمها فى صورة مذهب فلسفى متكامل حول معنى الحكم وكيف تكون مثالية الدولة وكيف تتحقق بمثالية أخلاق شعبها وقدرة أفرادها رجالاً ونساءً على أن يوظفوا كل إمكاناتهم ومواهبهم لخدمة دولتهم الواحدة فيؤدى كلاً منهم مهمته على الوجه الأكمل؛ فالحاكم يحكم بمقتضى الحكمة والعدل مستهدفًا تحقيق الخير للجميع دون نظر لمصلحته الشخصية، والجنود يدافعون بشجاعة وبسالة عن أرض دولتهم أما عامة الشعب من المنتجين فما عليهم إلا أن يبذلوا كل الجهد فى إنتاج الخيرات المادية لدولتهم حسب مؤهلاتهم وما ورثوه من مهن عن آبائهم ووفق ما استطاعوا تحصيله من علم.

وهكذا توالت أحلام البشر فى مدن فاضلة ودول مثالية تخلو من نوازع الشر ويتحقق للجميع فى ظلها الرفاهية والعدل.

وليس من شك أن كل المؤرخين المنصفين إذاما تأملوا التاريخ الفكرى والعملى للبشرية جيدًا لن يجدوا أفضل من الدولة الإسلامية التى أسسها محمد ﷺ وثبت أركانها ودعائمها الخلفاء الراشدون من بعده، تحقيقًا للنموذج الأمثل للدولة المثالية الفاضلة التى تحقق العدالة للجميع بفضل دين سماوى شامل نجح

أتباعه فى أن يلتزموا بتعاليمه السمحة الداعية إلى الإخاء والسلام والحرية للجميع، وكان نجاحهم كقدوة هو أساس نجاحهم فى تكوين تلك الدولة العالمية القائمة على تلك المبادىء السامية اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً . وفى ثنايا ذلك كان لابد أن تتفجر ينابيع الإبداع عن كل من آمن بالإسلام كدين ودنيا؛ فيظهر العلماء والفلاسفة والأدباء والمؤرخون الذين استوعبوا كل منجزات الحضارات السابقة وخرجوا على العالم بنظريات رائدة فى كل ميادين العلم والفكر، فكانت الريادة الفكرية للمسلمين فى كل مجالات الحياة ليس فقط على الصعيد السياسى وإنما أيضاً على كافة الأصعدة!! تلك كانت دولة مثالية قامت على مبادىء دين مستنير، وحينما أخفق أتباعه فى استثمار آفاق الإيمان والإبداع فيه أخذ الريادة منهم غيرهم!!

ولم يتوقف الحلم بمدن فاضلة أخرى، حيث خرج علينا فلاسفة الغرب المحدثين بيوتوبيات عديدة كان آخرها اليوتوبيا الماركسية التى أخذها الماركسيون الروس عن ماركس وانجلز وحولوها إلى حقيقة واقعة منذ نجاح الثورة الروسية عام ١٩١٧م، لكنهم حينما

تجمدوا عند تطبيق حرفى لها، وحينما استغلوها لتحقيق مصالح السيطرة والهيمنة على العالم بالحديد والنار فشلوا هم أيضًا!!

وعلى الجانب الآخر كانت أحلام الفلاسفة الفرنسيين والإنجليز منذ عصر التنوير بيوتوبيا اقتصادية وسياسية تقوم على الليبرالية السياسية والحرية الاقتصادية المطلقة وقد تحققت تلك الأحلام بعد الثورتين الفرنسية والأمريكية فى الغرب الرأسمالى. وتدعم نجاح الرأسمالية طوال القرنين الماضيين ورغم ما كتبه كارل كراوس فى "الأيام الأخيرة للنوع البشرى" وما كتبه اشبنجلر فى "انهيار الغرب" وتحول المزاج الغربى خلال القرن العشرين إلى النقوض والسقوط على حد تعبير راسل جاكوبى فى كتابه "نهاية اليوتوبيا" بفعل الحربين العالميتين، إلا أن الغرب الرأسمالى قد كسب معركته الأخيرة ضد اليوتوبيا الماركسية بانهيار الاتحاد السوفيتى عام ١٩٨٩ .

لقد كسب "الغرب" إذن الحرب الباردة وبدت فى الأفق نزعة من التفاؤل والأمل نحو يوتوبيا جديدة فى ظل ما روجوا له عن "النظام العالمى الجديد" فى ظل الدعوة إلى "عولمة" اقتصادية وسياسية وثقافية ظن الجميع معها أن تلك هى الجنة الموعودة!! فلا أفضل

من أن يسود العالم نظام اقتصادى حر يتيح لكل صاحب مال أن يستثمر أمواله فى أى مكان فى العالم دون قيود أو حواجز!! ولا أفضل من أن يسود العالم كله قيم ثقافية واحدة تتمخض عن بشر يلبسون نفس الملبس ويأكلون بنفس الطريقة ويتحدثون نفس اللغة ويتبادلون الخبرات والوظائف والنكات .. إلخ.

وشيئًا فشيئًا وفى خلال الأعوام العشرة الأخيرة من القرن العشرين، ومع بدايات هذه الألفية الجديدة بدأت قيادات العولمة فى الكشف عن وجهها القبيح فقد تكشف للجميع أن المقصود بالعولمة هو الهيمنة الغربية عمومًا والأمريكية خصوصًا على العالم وأنها مجرد محاولة لفرض قيم الغرب الاقتصادية والسياسية والثقافية على العالم . ويا ليت هذا الفرض كان فرضًا لقيم العدالة والحرية والمساواة التى يتشدقون بها، بل صارت فرضًا لمفاهيم ما يحقق المصلحة لهم فقط دون النظر لحقوق الآخرين!!

إنها الحرية ذات البعد الواحد، والثقافة ذات البُعد الواحد، إنها حرية أمريكا وخضوع الآخرين!! وهذا ما لم يقبله أحد حتى الآن، وهذا ما لن يقبله أحد فى المستقبل!!

وبدا السؤال الكبير هل هى نهاية العالم أم نهاية التاريخ؟! هل أصبح من المحتم أن يقبل الجميع بكل القيم السياسية والاقتصادية بل والاجتماعية والثقافية التى يراها الأمريكيون صحيحة؟!

هل أصبح من الضرورى والحتمى أن يصبح المستقبل صورة مكررة لما نعيشه فى الحاضر من هيمنة غربية - أمريكية تضرب بمصالح وثقافات وحريات الشعوب الأخرى عرض الحائط، ولا تنظر إلا إلى تحقيق مصالحها مع ما فى ذلك من ظلم وتعد على حريات الآخرين وضرب لمصالحهم ؟!

هل من المعقول - على حد تعبير الصحافى روبرت كابلان فى تقريره عن «نهايات الأرض»، «أن تصوب البنادق إلى رؤوس شعوب العالم النامى ونقول لهم: تصرفوا كما لو أنكم مررتم بتجربة الاستنارة الغربية .. تصرفوا كما لو أن ٩٥٪ من شعوبكم متعلمون ، تصرفوا كما لو أنه لا توجد بينكم صراعات عرقية أو إقليمية دامية ..» (نقلاً عن : راسل جاكوبى : نهاية اليوتوبيات، الترجمة العربية - لفاروق عبد القادر ، عالم المعرفة بالكويت، مايو ٢٠٠١ ص١٨٦).

حقًا إنه لحلم مفزع أن نتوقف عن التطلع إلى مستقبل أفضل من هذا الحاضر الممل الذى سيطرت عليه كل صور القوة عسكرية كانت أو اقتصادية أو سياسية. إن العدالة لا يمكن أن تتحقق بفرض منطق القوة على شعوب العالم. وإذا كان البعض لا يزال يتصور أننا لا بد وأن نساير منطق العصر الأمريكى حتى نحقق المنفعة ونستمتع بمجتمع الوفرة والرخاء، فإن هذا الحلم قد بدأ يتبخر! وأصبح الجميع يعتقدون الآن - على حد تعبير جاكوبى - أن الرخاء لا بد أنه مؤقت أو مقيد، وأن أى إدراك لرخاء لا نهائى فى غير مكانه لأنه لن يدوم ولن يكون هناك الكثير .. الكتب والمقالات تتحدث الآن عن نهاية الرخاء أو عن تصاعد أشكال عدم المساواة بين الغنى والفقير (ص١٨٩) .

وإذا كان بعض علماء المستقبليات لا يزالون يتحدثون عن إيمانهم بأن التقدم التكنولوجى سيحقق مجتمعًا شديد الاختلاف وفائق الامتياز بفضل حضارة صناعية جديدة ، فإن أحلامهم تتلاشى وسط عالم ملئ بكل صور العنف والظلم وتعاظم سطوة الأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال وسيطرتهم على الدول الكبرى، فى الوقت الذى تتعاظم فيه عزلة الدول الفقيرة وتهميش شعوبها وقتل طموح مبدعيها!!

هل معنى كل ذلك أنه لا أمل فى المستقبل ؟! الحقيقة أنه لن تخنق طموحات الشعوب نحو يوتوبيا جديدة ؛ إذ أنه فى مثل هذه الظروف الحاضرة -- الخانقة - المليئة بكل صنوف التعسف والظلم «تبقى الروح اليوتوبية ضرورة أكثر من أى زمن آخر» لأن الجميع يحس بأن «شيئًا ما مفتقد» على حد تعبير جاكوبى (نفس الكتاب، ص٢١٢) .

إن إدراكنا الواعى لكل صور العنف والتعسف والعنصرية والظلم فى عالم اليوم هو بلا شك الشرط المسبق والأساسى لاستجلاء وتصور المستقبل وماذا يجب علينا عمله فيه . إن علينا كما يقول أدورنو فى هذه الظروف الراهنة «أن نتأمل كل الأشياء كما تبدو فى الواقع من موقع الإنعتاق والتحرر .. وهذا يعنى رؤية العالم كما سيبدو يومًا فى ضوء المُخلِّص المنتظر» (نقلاً عن جاكوبى، ٢١٣).

فمن هو يا ترى ذلك المُخلِّص المنتظر ؟

(٢)

الحقيقة أن كتابات غربية عديدة ترشح «الإسلام» ليكون هو يوتوبيا المستقبل باعتباره ديانة عالمية داعية لكل القيم الإنسانية العليا فضلاً عن كونه أكثر الأديان القائمة توازنًا فى دعوته إلى المزج بين مطالب الروح ومطالب الجسم ، بين دور الفرد ودور المجتمع، بين الاقتصاد الحر وتشجيع الاستثمار الخاص وبين التكافل الاجتماعى وتوجيه رأس المال لخدمة أهداف المجتمع قبل خدمة مصالح الأفراد الذين يمتلكونه .. إلخ .

وربما يكون أرنولد توينبى أول فلاسفة التاريخ الغربيين الذين تنبأوا بأن المنافس الأكبر للحضارة الغربية حال انهيارها حضارتان أسيويتان هما الحضارة الهندوكية وبوذية الماهايانا، والحضارة الإسلامية وتوقع أن هذه الحضارات تملك من المقومات ما يمكنها من السيطرة على العالم بوسائل تتعدى تصورات الغربيين !!

وبالنسبة للحضارة الإسلامية قال توينبى فى كتابه الشهير «مختصر دراسة للتاريخ» الذى نقله للعربية فؤاد شبل بين عامى ١٩٦٥م ، ١٩٦٨م ، قال : إن الحضارة الإسلامية حضارة حية لن

يجرفها تيار الحضارة الغربية لأن بها مقومات بقاءها، وإذا ما اعترض على ذلك الفرد الأوربى قائلاً فى صلف : ماذا تنتظر من فلاح مصر أو حمال أسطنبول؟ فإن ذلك ما قاله جده الإغريقى بعد فتوح الاسكندر الأكبر للسوريان وتبين أنه قول خاطئ!!

وإذا كان ذلك قد حدث فى الماضى فإن الذى يتوقعه توينبى فى المستقبل فيما يتعلق بالتنافس بين الحضارتين الغربية والإسلامية ، أن الحضارة الغربية تحمل فى طياتها التناقض بين الفكر والعمل، بين أفكار المساواة والإخاء والحرية التى ورثتها من الثورة الفرنسية وبين التفرقة العنصرية التى تمارسها الآن بالفعل والتى تشكل خطراً عليها بزيادة وعى الشعوب الملونة، بينما طابع الحضارة الإسلامية الأصيل الاتساق بين الفكر والعمل بصدد المساواة إذ ارتفعت فى أزهى عصورها فاستطاع أن يصل إلى مراكز السلطة فيها الرقيق والعبيد مثل كافور الأخشيدى والمماليك.

والمدقق فى كلام توينبى الذى كُتب فى النصف الأول من القرن العشرين ، يجد أنه لا يزال يصدق على الحضارة الغربية اليوم ، فلا تزال تزن الأمور بمكيالين وتمارس العنصرية البغيضة والبلطجة السياسية رغم انقضاء عصر الاستعمار التقليدى الذى كان يلمح إليه توينبى فى حديثه السابق .

إن ضعف الدول والشعوب الإسلامية في ذاك الوقت لم يمنع توينبى من أن يميز بين ضعف الدول والشعوب الإسلامية، وبين الإسلام كدين عالمي - به كل عناصر القوة التي مكنت أتباعه حينما كانوا يطبقون حقًا شريعته قولاً وفعلاً، مكنتهم من أن ينتصروا على كل الإمبراطوريات القديمة وأن يكونوا دولتهم العالمية الفذة التي بهرت العالم ووصلت حدودها إلى قلب أوربا.

وبالطبع فإن فلاسفة الغرب ومؤرخيه وكتابه الكبار لا يزالون على نفس الاعتقاد بأن الحضارة الإسلامية هي التي تمثل التحدى الأكبر للحضارة الغربية المعاصرة . وقد تزايدت الكتابات في هذا الاتجاه في السنوات الأخيرة وبالذات عقب نهاية الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفيتي. وكم كتب الكاتبون عن الصدام المتوقع بين الحضارة الغربية والإسلام واعتبروه العدو الأكبر بعد سقوط الشيوعية؛ فلقد بات مألوفًا - على حد تعبير جراهام فوللر وإيان ليسر في كتابهما «الإسلام والغرب» الذى نقله للعربية شوقي جلال - منذ نهاية الحرب الباردة القول بأن الصراع الأيدلوجي العالمي المقبل قد يكون بين «الإسلام» و«الغرب» ويأتي ذلك تأسيسًا على اعتقاد بأنه لا بد كضرورة مطلقة أن يظهر فيما بعد «مذهب» ، يتخذ موقف التحدى من المجتمعات الغربية . وهذا القول في

نظرهما ليس عاريًا تمامًا من أى أسباب تبرره ؛ ذلك أن القوة الرمزية والواقعية التى يمثلها الغرب والولايات المتحدة الأمريكية بخاصة على الساحات الثقافية والسياسية والاقتصادية والعسكرية هى قوة مهولة اقتحامية . إن حضور الغرب على الصعيد العالمى لا بد - وبحكم هذا التعريف - أن يولد نوعًا من الاستجابة المعاكسة أو المضادة . (ص ١١ من نشرة مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٩٩٧م) .

والحقيقة التى ينتهى إليها المؤلفان فى هذا الصدد بعد دراسة جوانب عديدة للعلاقة بين الإسلام والغرب من منظور واقعى «أن العمل الموحد المحتمل من جانب الدول الإسلامية ضد مصالح الغرب هو إمكانية نظرية ، وليس مرجحًا أن يكون على أساس منهجى منتظم، كذلك ليس من المحتمل أن تسمح دول الغرب بتدهور علاقاتها مع العالم الإسلامى بمعناه الواسع إلى هذا الحد . علاوة على أن مصالح الدول الإسلامية الخاصة متباينة بما يكفى للحيلولة دون قيام جبهة مشتركة إلا فى ظل ما يرونه أنه أشد التحديات خطرًا » (ص١٣٢ من نفس الكتاب السابق) .

وقد كفانا هذان المؤلفان حديثًا عن الصدام أو الصراع المتوقع بين «الإسلام» و«الغرب» سواء على مستوى الدول أو على مستوى

الشعوب . فالمسألة فى النهاية لن يحسمها الآن كما كان فى السابق أى صراع عسكرى أو سياسى! فقد بالغ دعاة الصدام أو الصراع الحضارى فى دعواهم حتى يخلقوا عدواً جديداً يتخذونه بدلاً من الاتحاد السوفيتى الذى تفكك وانهار، واستسلم بعده أنصار الشيوعية دولة بعد أخرى!

والحقيقة التى أراها ذات شقين ؛ **أولهما** : أن المسلمين ليسوا فى حالة صدام سياسى أو صراع عسكرى مع الغرب ولن يكون ذلك فى المستقبل القريب والأسباب التى ذكرها فوللر وليسر لذلك قليل من كثير يعرفه المسلمون جيداً كشعوب قبل أن يكونوا دولاً أو حكومات!!

وثانيهما : أن القلق الغربى من «الإسلام» إنما يأتى من المؤسسات الأمنية والمراكز البحثية الاستراتيجية ومن قبل مفكرين لا يزنون الأمور بميزان العقل والإيمان إنما بميزان الخوف على المصالح الذاتية وانتصاراً لدعاوى عنصرية - صهيونية فى المقام الأول .

وعلى ذلك فإننى أرى أن انتشار الإسلام بين الغربيين إنما سيأتى من شوقهم إلى تلك النزعة اليوتوبية التى افتقدوها فى ظل

حضارة مادية أنهكتهم بالتركيز على الإشباع المادى الغرائزى ، وهو تركيز مهما حقق الإنسان فيه من شهوات فإنه لا بد طامح إلى المزيد ، والمزيد فى هذا الجانب يؤدى حتمًا إلى ما لا نهاية له من المطالب حتى يتحول المرء إلى حيوان نهم أو يكاد!!

و«الإسلام» كبديل يوتوبى يمتاز بأنه جمع بين العقيدة الدينية الصافية - النقية المؤكدة المصدر ، المدعمة بكل صنوف الأدلة الإيمانية والعقلية والعلمية على صحتها وقوة مبادئها ، وبين التصريف الأمثل لشئون الدنيا بكل ما فيها من جوانب اقتصادية واجتماعية وسياسية على أساس من التوازن الأمثل بين تحقيق مطالب الفرد وتحقيق مطالب المجتمع فى ظل علاقة مثلى بين الفرد والله من ناحية، وبين الفرد وغيره من البشر من ناحية أخرى .

إن هذا الأمل «اليوتوبى» هو فى النهاية رهان «الإسلام» فى الانتصار على الحضارة الغربية أحادية الجانب . إن اعتناق فلاسفة من أمثال جارودى وغيره للإسلام إنما جاء بعد رحلة بحث عقلية طويلة مع كل العقائد والفلسفات المعاصرة غربية كانت أو شرقية . وانتهت رحلة البحث عند هؤلاء إلى أن العقيدة الأصح والأفضل والأشمل هى «الإسلام» فكان إيمانهم بالعقل قبل أن يكون بالعاطفة أو كسبًا لمصلحة . «فالإسلام» هو المؤهل فى

اعتقادى لأن يكون البديل اليوتوبى الأكبر والأعظم لكل الباحثين عن «يُوتوبيا» حقيقية يحتمون بها من تعسف الحضارة الغربية وظلم أنصارها وعقم المبادئ التى تقوم عليها، خاصة وأن «الإسلام» هو الدين الذى يتيح للمؤمنين به أكبر قدر من حرية التفكير والعقيدة، وهو الدين الذى لا يرى فى وجود الأديان الأخرى أو المذاهب الأخرى أى غضاضة، بل يرحب بها فى ظل قوله تعالى: **«من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر»** . فضلاً عن كونه الدين الوحيد الذى يدعو إلى العلم والعمل بموجب العقل إلى أقصى مدى إنسانى ممكن ، وهو لا يضع أى قيود على حرية البحث العلمى وفهم العالم من منظور المنفعة للإنسان .

إن هذه الأسس الصافية للعقيدة الإسلامية هى التى تحدى بها «الإسلام» عقل الإنسان الساعى إلى أفضل صورة ممكنة للحياة الإنسانية . وهى ذاتها التى ستجعل من «الإسلام» يوتوبيا المستقبل بالنسبة لكل البشر الساعين دومًا إلى إدراك الحقيقة بشقيها الدينى والدنيوى.

رابعاً

الغربيون

و" صناعة" المستقبل

(١)

مهما تبلغ الشعوب من رفاهة وتقدم فهى بحاجة لمراجعة النفس فيما تم من إنجازات وصولاً إلى إدراك النقائص وسد الفجوات لإدراك المزيد من التقدم فى المستقبل . والشعوب الحية الحريصة على الفعل فى التاريخ هى وحدها التى يتركز فكر مفكريها فى تأمل صورة المستقبل والحرص على القراءة الموضوعية له بحيث يمكنها المشاركة الفاعلة فيه .

من هنا كان الشغل الشاغل لفلاسفة الغرب المعاصرين هو استباق الأحداث ومحاولة قراءة المستقبل وعلى رأس هؤلاء كان الفيلسوف الفرنسى المسلم روجيه (رجاء) جارودى الذى جاءت قراءته للمستقبل فى كتابه «كيف نصنع المستقبل»(*) الذى نقله إلى العربية د. أنور مغيث ود. منى طلبه، قراءة مختلفة عن قراءات فوكويا ما وهتنجتون وغيرهما؛ حيث ركزت على قراءة المستقبل قراءة إيجابية من منطلق تحليل عقلانى موضوعى لأحداث الماضى والحاضر، كما وضع فيها جارودى مشروعًا يكاد يكون متكاملاً

* نشرة دار الشروق بالقاهرة، الطبعة الثانية ٢٠٠١م .

لصناعة المستقبل. ورغم أن الكتاب موجه بالطبع للمثقف الغربى وللقارىء الغربى إلا أنه حينما وضع خطته للمستقبل راعى مصالح كل شعوب العالم ولم يتوقف عند حدود المصالح الضيقة للشعوب الغربية وخاصة أوربا كما يفعل عادة المفكرون الأوربيون، أو مصالح أمريكا كما يفعل عادة المفكرون الأمريكيون الذى يروجون الآن لنظرية صدام الحضارات أو نهاية التاريخ ظنًا منهم أن الانتصار النهائى سيكون لحضارة الغرب الرأسمالية التى تقودها الآن بلا منازع الولايات المتحدة الأمريكية! وهو ظن خاطئ لا محالة لأننا لسنا بصدد نهاية للتاريخ، بل بصدد نهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة تتشكل الآن فى رحم الأحداث المتسارعة على الساحة العالمية.

والقارىء المدقق للأحداث، المتمتع بالرؤية الفلسفية الشاملة لن يتوقف عند ظاهر ما يحدث ويتنبأ من خلاله، بل هو الذى يقفز فوق هذه الأحداث متعمقًا جذورها وأبعادها حتى ينجح فى إزالة غشاوة زخم الأحداث الحاضرة وصولاً إلى رسم صورة المستقبل وتحديد معالمه من خلال المشاركة بالرأى والأفكار الجديدة التى

يمكنها أن تجعل من هذا المستقبل أكثر تقدمًا وأكثر خيرية وأكثر أمانًا للبشر ككل، وليس لأمة معينة من الأمم! وهذا ما يحاوله حقًا جارودى فى هذا الكتاب الهام.

لقد ترك جارودى كل ما يجرى على السطح من أحداث تشير إلى الهيمنة الغربية سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا وثقافيًا، وانشغل بتأمل الصور السلبية لهذه الهيمنة الغربية ودلالتها على انحطاط الحضارة الغربية المعاصرة وبداية احتضارها وهو يحدد ملامح هذا الانحطاط من الناحية الموضوعية فى ثلاث نقاط أساسية هى؛

أولاً : أن رأس المال الذى تم تجميعه خلال خمسة قرون بالنهب الاستعمارى والمحدود بعد ذلك بالاستثمارات فى البلاد الصناعية الكبرى فى أوروبا العجوز والذى يخلق حاجات اصطناعية ومؤذية عبر الإعلان والتسويق، رأس المال هذا الذى يخلق أصوله بالاستثمار فى مؤسسات الإنتاج والخدمات الواقعية، أصبح رأس مال مضاربة أى أصبح طفيليًا خالصًا. النقود لم تعد تخلق السلع، ولكن تخلق النقود (ص١٩).

ثانيًا : أن العمل الخلاق لم يعد يفيد فى تنمية الإنسان (أى كل البشر) ولكن فى تضخيم فقاعة مالية لأقلية ضئيلة ليس لها من غاية سوى تكبير هذه الفقاعة وبذلك لم تعد مشكلات معنى العمل والإبداع والحياة تطرح للبحث (ص١٩-٢٠).

ثالثًا : أن معنى الكلمات نفسه قد تشوه؛ فنستمر فى أن نطلق كلمة "تقدم" على انحراف أعمى يؤدى إلى تدمير الإنسان والطبيعة ونطلق كلمة "ديمقراطية" على أشنع قطيعة عرفها التاريخ بين من يملكون ومن لا يملكون ونطلق كلمة "حرية" على نظام يسمح - بذريعة التبادل وحرية السوق - لأولئك الأكثر قوة أن يفرضوا الديكتاتورية عديمة الإنسانية تلك التى تسمح بابتلاع الضعفاء، ونطلق كلمة "عولمة" لا على حركة تؤدى إلى وحدة متآلفة الأنغام للعالم عن طريق اشتراك كل الثقافات ولكن بالعكس على انقسام يتنامى بين الشمال والجنوب نابع من وحدة امبريالية وطبقية.. ونطلق كلمة "تنمية" على نمو اقتصادى بلا غاية ينتج بإيقاع متسارع أى شىء سواء كان مفيداً أو غير مفيد، مؤذيًا أو حتى مميتًا كالأسلحة والمخدرات وليس تنمية الامكانات البشرية الخلاقة (ص٢٠).

وفى ضوء هذا التحليل الذى كشف عن الصورة المؤلمة للحضارة الغربية المعاصرة التى تتمثل فيما يسمى بالنظام العالمى الذى يعمل على حد تعبير جارودى «فى اتجاه واحد هو حماية السوق الأمريكية وفتح أسواق العالم كله أمامها» .. «خالقة بذلك مجالاً مشوهًا مكونًا من بعض مئات المختارين ومليارات المستعبدين وبين الاثنين كتلة بلا قوام من أولئك المحكوم عليهم بعمل يفتقر إلى المعنى كى يحصلوا عبر زيادة كمية الاستهلاك على سعادة السوبر ماركت كبديل لحياة حقيقية، حياة هى منذ الآن فصاعداً بلا هدف» (ص٣١).

أقول فى ضوء هذا التحليل بدأ جارودى يفكر فى المستقبل مؤكداً منذ البداية على أن بداية المستقبل "يعنى أن نحول اتجاه مساره بعيداً عن الموت" وتحويل هذا المسار لا يكون إلا «بفتح المجال أمام ثروات الأرض وإبداعات الإنسان لا إمكانات المضاربة العقيمة ولكن بالاستثمار المنتج لتحقيق البنية التحتية اللازمة لتنمية الإنسان كل إنسان» (ص٣٠).

ولا شك أن هذا التحول لا يتوقف عند الاقتصاد بل يتعداه إلى السياسة والتعليم والدين ..إلخ. وهذا ما يتشكل عبره ملامح المستقبل الأكثر سعادة للبشرية.

(٢)

ويبدأ جارودى فى الجزء الثانى من كتابه «كيف نصنع المستقبل» تحديد الملامح الأكثر تفصيلاً التى يراها ضرورية للحفاظ على وحدة الإنسانية ومنع انتحار كوكب الأرض بمن عليه من بشر وهذه الملامح تخص تحولات ضرورية لابد أن تجرى فى مجالات الاقتصاد والسياسة والتعليم والإيمان الدينى.

أما فيما يخص الاقتصاد فإنه يرى ضرورة تغيير الانحرافات الاقتصادية الراهنة :

أولاً : بتدمير الأسطورة التى تضفى كلمة ديمقراطية على حرية السوق؛ فالحقيقة التى يراها جارودى بهذا الصدد أن السوق الحر قاتل للديمقراطية لما فيه من تراكم الثروة فى قطب والبؤس والفقر فى القطب الآخر. ولذلك فهو يدعو إلى صدور قرارات سياسية داعية إلى التحرر من العولمة المزعومة للاقتصاد أى من الإدارة الأمريكية للاقتصاد التى تريد أن تجعل من أوربا ومن باقى العالم مستعمرة تفتح منافذ أمام اقتصادها الخاص فى جميع المجالات من المنتجات الزراعية والصناعية إلى المعلومات والسينما !.

ثانيًا : ضرورة إعادة تأسيس علاقات جديدة جذريًا مع العالم الثالث وذلك بإلغاء كامل للديون التى لا أساس تاريخى لها ولا مبرر، وإلغاء كل معونة مالية لحكومات العالم الثالث.

وفى ضوء هذا وذاك فهو يدعو إلى "باندونج" جديدة من أجل أن يكون القرن الحادى والعشرين علامة على نهاية عصر ما قبل التاريخ الحيوانى للإنسان وبعث حياة جديدة للإنسان تتم بواسطة تحالف لكل القوى الإنسانية حقاً من الاقتصاد إلى الثقافة إلى الإيمان (انظر ص١١٣ - ١١٦).

أما فى مجال السياسة فهو يسعى إلى خلق نظام سياسى ذى وجه إنسانى لا يقوم على ديمقراطية الغرب المزيفة التى تقوم على التلاعب بالرأى العام من خلال وسائل الإعلام المختلفة المملوكة للمحتكرين وبعض القوى العنصرية، كما تقوم على تحالفات اليمين واليسار وهما يمارسان نفس السياسة، سياسة الكذب الذى يسوغ كل الجرائم التى تحدث فى العالم باسم الديمقراطية وباسم التوحيد المنافق بين حرية السوق وحرية الإنسان (ص١٢٥ - ١٣١).

إن النظام السياسى الذى يدعو إليه جارودى ينبغى أن يقوم فى رأيه على إعلان عالمى جديد لواجبات الإنسان تقول ديباجته «أن الإنسانية فى تنوع عناصرها هى كل واحد لا ينقسم وأن الواجب الرئيسى للجماعات ولأعضائها هو خدمة هذه الوحدة وتطورها الخلاق بالتمييز بين الإنسان والحيوان ويكون هذا الواجب هو أساس كل الواجبات الأخرى . أن يُستبعد كل تسلط وتُضمن كل الحقوق، وأن يستبعد كل زعم فى الخصوصية وفى سيطرة معتقد أو أمة أو جماعة أو فرد، وأن تضمن حرية التعبير لكل نزعة إنسانية (ص١٣٢).

ويقوم هذا المشروع العالمى لواجبات الإنسان على أساس الإيمان بأن الإنسانية مجتمع واحد ولكن ليس بواسطة وحدة امبريالية قائمة على سيطرة دولة أو ثقافة معينة، وأن الملكية داخل هذا المجتمع الإنسانى الواحد سواء كانت عامة أو خاصة لا شرعية لها إلا إذا أقيمت على العمل وساعدت على تنمية المجتمع، وأن السلطة على أى مستوى كانت لا يمكن أن تمارس أو تسحب إلا بواسطة توكيل من قبل من يلتزمون التزامًا مكتوبًا للوصول إلى المواطنة ومراقبة الواجبات، كما أنه لا يجوز لأحد داخل هذا المجتمع الإنسانى الواحد أن يزعم امتلاكه المعرفة الكاملة والحقيقة المطلقة (ص١٣٦ - ١٣٧).

وبالطبع فإن هذا الإصلاح السياسى الشامل يحتاج لكى نؤسس له لتغيير النظم التعليمية الإيدلوجية القائمة، ولذلك فإن جارودى يركز أكثر علي إصلاح النظم التعليمية من بداياتها الأولى؛ من تعليم القراءة ذاتها إذ أن مفهومه لمعرفة القراءة مختلف عما هو شائع؛ «فأن تعرف القراءة، فهذا لا يعنى فقط أنك تستطيع أن تقرأ الكلمات والعبارات وإنما يعنى أيضًا أنك تستطيع أن تقرأ العالم الواقع بكل تناقضاته ومقتضيات تغييره» (ص١٧٤).

ومن هنا فهو يرى أن التعليم منذ تعلم القراءة ينبغى أن يتيح للجميع وسيلة للتفكير فى الوقائع وتحقيق هذه الأفكار بدلاً من النظام الشائع فى التعليم الحالى الذى يغرق الطفل فى عالم غير واقعى ويرسخ فى ذهنه دائمًا أيدلوچيات مبررة للسلطات (نفسه).

وقد انتقد جارودى بشدة نظم التعليم الغربية التى تركز على تأكيد المركزية الغربية والتى جعلت العقل الغربى عمومًا محصورًا فى البحث عن الوسائل بوصفها غايات فى ذاتها وأوضح أن من شأن هذا أن يقود العالم إلى الدمار عن طريق استغلال العقلية الغربية للذرة والصواريخ والچينات بدون حكمة، وامتدح فى هذا الصدد المنهج الإسلامى فى المعرفة والعلم ذلك المنهج التجريبى الذى أتاح للعلماء اكتشاف كمًا هائلاً من المكتشفات فى الوقت

الذى ارتبط فيه هذا المنهج العلمى الرصين بالحكمة والإيمان، إذ أن الإيمان فى رأيه يعد البُعد الثالث لكل عقل متكامل بالإضافة إلى العلم والحكمة (ص٢٠٠).

ولعل أهم ما فى هذا المشروع الإصلاحى المستقبلى لجارودى هو إدراكه لضرورة ربط مشكلات التعليم بالإيمان بعضها ببعض بشكل حميم على أساس أن كلاً منهما فى رأيه تطرح قضية الغايات الأخيرة للإنسان وينطبق هذا الأمر على كل حضارات العالم (ص٢٣٧) .

ولذلك فهو يرى أن «عالمنا تلزمه صياغة جديدة لقيم المقدس، ويلزمه مفهوم جديد للدين يتطابق تمامًا مع أصول العبادة والصلاة ولكن يُعبر عنه بشكل جديد ومختلف، شكل يسمح لنا بالتعرف على وجودنا الخاص وعلى وجود الآخرين أيضًا بوصفهما مقدسين. ويطلعنا على مسئولية البعض إزاء البعض الآخر، ويكشف لنا عن قدرتنا على خلق عالم أكثر عدلاً فى ديننا الجديد هذا، سيكون على القادر والثرى والعالم مسئولية، وللفقراء حقوق . هذا هو الدين والاقتصاد والنظام الاجتماعى والحياة الخلاقة للفنون والتكنيك والتعليم . كل هذا لن يكون إلا شيئًا واحدًا يهدى تفكيرنا وحركتنا» (ص٢٦٦-٢٦٧).

إن جارودى بكلماته تلك فى الربط بين الإصلاح الدينى وكل صور الإصلاح الأخرى، إنما يدعو إلى وحدة الأديان، تلك الوحدة التى يعلو فيها المؤمنون بهذه الأديان على كل تعصب، ويؤمنون بأن الإخصاب المتبادل للثقافات التى تمثل مختلف الأديان فيه ثراء لا يصح التنازل عنه من أجل أن يفرض أحدنا على الآخر شكل التعبير الذى ورثه عن ثقافته ودينه.

لقد تحلى جارودى بأقصى درجات الشجاعة التى ذكرتنى بشجاعة ڤولتير حينما قال بوضوح شديد «نحن بحاجة اليوم إلى أنبياء أكثر مما نحن بحاجة إلى ساسة، نحن بحاجة لبوذا ويسوع وغاندى أكثر من قيصر أو نابليون؛ وذلك أنه ما من شىء يبدأ من القوانين والامبراطوريات، كل شىء يبدأ من عقل البشر، ويبدأ مع المراجعة الجادة للأديان التقليدية» (ص٢٧١ - ٢٧٢) .

وحينما قال أيضًا «إن تهيئة هذا التحول الروحانى العالمى سياسيًا تعنى أننا يجب أن نضع نهاية لما يدعى بالعولمة التى هى مضادة للعالمية. إن العولمة مشروع امبريالى لتسوية أو إزالة الثقافة والإيمان لدى مختلف الشعوب حتى يفرض عليهم - علاوة على أسلحة ودولارات الولايات المتحدة الأمريكية - اللاثقافة واللامعنى التى يتحلى بها دين لا يجرؤ أحد على التصريح باسمه

ألا وهو دين وحدانية السوق، هذا الدين الذى لن يكون فقط نهاية للتاريخ بل سيكون موتًا للإنسان وللإله الذى هو كامن فيه» (ص٢٧٣).

وهكذا كشف جارودى فى النهاية عن أن صناعة المستقبل الأفضل للبشرية أساسها إعادة تأسيس النظم السياسية والتعليمية والاقتصادية والدينية لتكون فى مصلحة الإنسان كإنسان بصرف النظر عن لونه أو ثقافته المحلية أو دينه الخاص أو مقدار ثرائه أو انتمائه العرقى . وبالطبع فهى رؤية يوتوبية جديدة لعالم يمكن أن يولد غدًا أو بعد قرن أو بعد قرون، لكن السؤال الذى ألح علىّ طوال قراءتى للكتاب الذى هو موجه بالأساس للإنسان الغربى هو : أيمكن أن يثق جارودى فى أن هذا الإنسان الغربى الذى قاد ولا يزال يقود العالم إلى مزيد من الدمار والظلم هو الذى يمكن أن يقود هذا التحول اليوتوبى؟!